البحوث التطبيقية في السنّة النبوية الشريفة منهج توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية

د. صالح نعمان
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة

المقدمة:

أدى التقدم العلمي المطرد والانتشار الواسع للعلوم إلى تغيرات ثورية في **أسس ومبادئ المعرفة**, مما نتج عنه ثورة وانقلابا في كثير من المفاهيم والتصورات عن الإنسان والكون والوجود بصفة عامة وتركا أثرا عميقا في **المعتقدات الدينية**, فقد ضاعفت العلوم معلوماتنا العلمية عن العالم في مجالات عدة ولكنها في نفس الوقت أوجدت شبهات وتساؤلات ومشكلات جديدة حول الدين.

كما أحدثا في تطورها من ناحية أخرى انقلابا كبيرا على مستوى **مناهج العلوم** تطلب مراجعة وتغيير و تطوير طرق و وسائل البحث لكثير من العلوم و من بينها علم العقيدة، مما استوجب تطوير مناهج البحث في الدراسات العقدية و توظيف معارف ومنهاج العلوم التطبيقية و الاجتماعية فيها، وهو ما تفتقر إليه كثير بل اغلب البحوث و الرسائل الجامعية المعاصرة في العقيدة الإسلامية في الجزائر، كما افتقرت إلى الدراسات الميدانية، مما جعلها لا تتماشى في اغلبها وأهداف البحث العاصرة والتنمية الاجتماعية، كما أنها لا تواكب أو لا ترقى إلى مستوى مواجهة التحديات المعاصرة على كل المستويات (الاجتماعية و السلوكية و النفسية و الدعوية و العلمية المعرفية).

فما هي دواعي و أسس توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية؟ و إلى أي مدى تكون هذه الاستفادة و التوظيف؟ مع التسليم بالعلاقة التكاملية بين العلم و الدين و فق منهج القرآني.

وللرد على الشبهات و مواجهة التحديات أدرج العلماء المسلمون والمحدثون والمعاصرون (كما فعل المتكلمون الأوائل) المنهج العلمي في سياق المناهج المعتمدة إذ استخدموه لإثبات أصول العقيدة, حيث استخدموا هذا المنهج الاستدلالي على وجود الباري سبحانه وتعالى والنبوة, واليوم الآخر, وصلاحية الشريعة للبشرية..إلخ.

و استخدموه لربط المؤمن بربه وإذكاء حيوية مشاعر التعظيم والحب والخوف والرجاء, إدراكا منهم أن المناهج الكلامية التقليدية لم تعد تنسجم مع أنماط التفكير والعقلية السائدة في عالم اليوم في ظل التطورات العلمية والتحولات التي طبعت أذهان البشر, مما جعل التزام الخطاب العلمي ضرورة واقعية لتوعية المسلمين ودعوة غيرهم ولرد شبهات الخصوم.كما استخدموه في ترقية البحث العلمي.

نحاول أن نجيب عن هذه التساؤلات بإبراز حقيقة الصلة الطبيعية بين علم العقيدة و العلوم الكونية نموذجا و عرض أسس منهج توظيف نتائج ومعطيات التطور العلمي المعاصر.

و ذلك من خلال العناصر الآتية:

1-مقدمة

2- الإشكالية

3- المبحث الأول:صلة علم العقيدة بالعلوم الكونية

4- المبحث الثاني: مبررات توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية

5-أسس توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية.

الإشكالية:

سؤال التخصص المتعلق بالبحث في المجال المعرفي الإسلامي يحيل في نظرنا على إشكاليتين متداخلتين:

الأولى تتعلق بالباحث والمهام المعرفية التي يؤديها داخل الفضاء الإسلامي الحديث والمعاصر .

والثانية ترتبط بالبحث و العلوم الإسلامية في علاقتها بالقديم والجديد من المعارف .

سنتطرق إلى هاتين الإشكاليتين انطلاقا من محاولتنا الإجابة عن السؤال الآتي: هل نتائج العلوم الكونية و توظيفها كالتفسير العلمي ورديفه الإعجاز العلمي يدخلان ضمن مجال علوم الشريعة فنحتاج إلى خريجي الكليات الشرعية لتوظيفها و البحث فيها؟ أم هو أقرب إلى مجال "العلوم الكونية والطبيعية "فيحال على خريجي الكليات العلمية ليتناولوها كل حسب اختصاصه؟ أم هو مجال معرفي جديد يتجاوز مجال تخصص كلا الطرفين؟.

نشير مقدما إلى أن موضوع توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية كالإعجاز مثلا ليس جديدا على الثقافة الإسلامية، فقد كان لصيقا بالعلوم الشرعية، وإنما الجديد فيه هو إحالاته وفضاءاته المعرفية. لقد كان ذلك أساسا ضمن الفضاء المعرفي للعالمية الإسلامية الأولى [1] ويندرج ضمن مجال كفاءات علماء الشرع، حيث كانت المعارف العلمية المتاحة جزءا أساسيا من تكوين العالم التقليدي.

لكن بخلاف العلم في عصور التقدم الحضاري الإسلامي الذي يستوحي أسسه من منتوج معرفي ذاتي، فإن العلوم الكونية مادة الإعجاز العلمي يحيل إلى منتوج معرفي خارجي يتم استيرادها من "خصمنا" الحضاري.

مما يجعل الباحث يتميز بإحساس فادح بالتخلف في الميدان نفسه (العلوم الكونية والطبيعية) الذي يحيل عليه هذا المولود المعرفي الجديد.

ومأزق الخطاب النقدي في توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية (الإعجاز العلمي) يكمن في:

• **عدم استحضاره التحولات السوسيو-معرفية** التي تعيشها أمتنا في هذه المرحلة الانتقالية من تاريخنا بين نهاية العالمية الإسلامية الأولى وبوادر انطلاق العالمية الإسلامية الثانية. بين عالم ينهار وعالم جديد يولد، هناك مرحلة مخاض مؤلمة تصبح الرؤية فيها ضبابية؛ مما يتطلب نفوسا شفافة قادرة على الإبصار وسط الإعصار.

الوعي بطبيعة هذه المرحلة ومتطلباتها والأدوار الإيجابية التي يمكن أن يؤديها مثل هذا النوع من البحوث أولى بالاعتبار من السعي إلى تدميره عبر الاستنجاد بدعاة فصل العلوم الكونية عن العقيدة أو العلوم الشرعة عموما.

• ما نعيشه في هذه المرحلة من تاريخنا المعرفي هو **انفصام بين معارفنا التقليدية** التي كانت تندرج ضمن مخطط العلوم الشرعية، **والمعارف الحديثة** التي تضخمت أفقيا وعموديا لدرجة تبدو معها المعرفة الدينية الإسلامية أو غير الإسلامية بمثابة بقايا أركيولوجية (حفرية)، وضمن الفضاء المعرفي الحديث نشأت معارف وعلوم جديدة وتطورت أخرى قديمة وإن كان لا يجمع بين قديم متنها وحديثه في كثير من الأحيان إلا العنوان.

• زيادة على ذلك، فإن **مجال تداول المعرفة في عصرنا هذا توسع وتنوع** ليشمل إلى جانب الفضاءات التقليدية من مدارس وجامعات، فضاءات حديثة من شبكات للمعلومات (الإنترنت) وقنوات تلفزيونية، بل حتى الفضاءات التقليدية تطورت أشكال إنتاج المعرفة فيها من خلال إنشاء مراكز البحوث والدراسات التي أصبحت ركيزة أساسية في إنتاج المعرفة والخبرة المتخصصة. والفضاءات الإعلامية الحديثة لا يقتصر دورها على ترويج المعرفة، بل تساهم في توجيهها وتسويقها.

المبحث الأول: صلة علم العقيدة بالعلوم الكونية

حتى تتبين حقيقة هذه الصلة بين علم العقيدة والعلوم الكونية إلى جانب ما بينته سابقا لابد أن نميز بين الموقف العقدي الشامل الذي يكون سابقا للعمل البحثي ومهيمنا عليه وهو الخلفية العقدية والفلسفية للنظريات وللنتائج العلمية، وبين التأمل الفكري العقدي والفلسفي، بل الاجتماعي والأخلاقي، الذي قد يبنى على- أو يكون بوحي من – نتائج العلوم الكونية[2].

فكثير من الاعتقادات والعادات والأفكار والقضايا الفلسفية تعدل وتبدل بتأثير العمل التجريبي والحقائق التي اكتشفها العلم في تطوّره، ذلك أن العلوم من أهم خصائصها التغير السريع في النتائج كلما تقدمت وارتقت أدوات البحث التجريبي، وتعددت طرائقه واختلفت وسائل تحصيله: وإلى ذلك يلفت الفارابي نظرنا مبينا أهمية العلم ودوره في تغيير الآراء والمعتقدات «الإنسان من قبل أن يتأدب ويتحنك يستنكر أشياء كثيرة، ويستبشعها ويخيل إليه فيها أنها محالة، فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب، زالت عنه تلك الظنون فيها، وانقلبت الأشياء التي كانت عنده محالة فصارت هي الواجبة، وصارت عنده ما كان يتعجب منه في حد ما يتعجب من ضده»[3].

وبما أن حقائق العقيدة الإسلامية عقيدة صحيحة ثابتة يقينا بثبات ويقينية مصدرها الوحي، فإنها لا تتغير ولا تتبدل بتغير وتبدل نتائج العلم، وإنما تأخذ بالصحيح اليقيني منها (أي الحقائق) في تطوير طرق استدلالاتها وتنويعها لتثبيت الإيمان وترقيته وتصحيح وتقويم ما ألفه الناس من الأفكار والعادات الخاطئة المنحرفة، ذلك أن علم العقيدة يستثمر قواعد وحقائق العلم- وفق ضوابط التعامل مع نتائجه المتغيرة تحصيلا وتوظيفا- ليستخدمها في الاستدلال على حقائقه، فأي حقيقة من حقائق العلوم الكونية تصلح لأن تنصر العقيدة الإسلامية بإثبات مفرداتها أو برد شبهة عنها، فإنها تكون مادة صالحة لأن يستخدمها علم العقيدة في

الاستدلال[4]، بل كما يقول وحيد الدين، العلم كله يصبح «علم كلام قرآني» لأن كل ما يعثر عليه العلم إنما هو نفحة من أعمال خالق هذا الكون[5].

وهذا ما يثبت الصلة الوطيدة بينه والعلم الذي يعد بمثابة الآلة أو الأداة التي تساهم في فهم القرآن والوقوف على آيات الله في الآفاق والأنفس، مما يضيف إلى المفكر المسلم المعاصر المزيد من الأدلة العلمية والبراهين التجريبية، وهو ما يشكل ويكون كذلك العقلية العلمية والنظر العقلي العلمي لدى المفكر المسلم المعاصر.

وهذا ما حدث بالفعل مع العلماء والمفكرين المسلمين الأوائل حين تحكموا في هذا الجانب التوظيفي للعلم بوعي وحكمة، أمثال الراغب الأصفهاني(502هـ)، أبو حامد الغزالي(505هـ) وفخر الدين الرازي (606هـ)، والزركشي (794هـ) وجلال الدين اسيوطي(ت911 هـ)، وأبو الوليد ابن رشد وابن القيم وابن تيمية(728هـ) وغيرهم.

وتتجلى حقيقة هذه الصلة وأهميتها بالحديث عن كيفية التعامل مع علوم العصر وكيفية الاستفادة منها في مجال علم أصول الدين من خلال معرفة النماذج التاريخية والحديثة.[6]

المبحث الثاني: مبررات توظيف المعارف العلمية المعاصرة في الدراسات العقدية.

المطلب الأول: مقاصد القرآن أو المقاصد العقائدية.

أولا: المقاصد الوسائلية والمقاصد الضرورية للعقيدة الإسلامية.

هناك ثلاثة مقاصد وسائلية كبرى للعقيدة الإسلامية:

1 - النظر العقلي على قاعدة الأسس التالية:

ـ التأسيس للحرية الإنسانية عبر التشريع لنفي الإكراه مطلقا.

ـ التأسيس لقانون التعليل الاستصلاحي أي القائم على جلب المصلحة الإنسانية ودرأ المفسدة .

ـ التأسيس للعلم ميزانا عادلا يجلب الإيمان ويطرد الكفر بسائر ضروبه وألوانه مطلقا.

ـ التأسيس للحوار عبر حسن الاستماع سبيلا للرشد الفكري وطاردا للغي الكفري.

2 ـ التمكين لقانون الابتلاء على قاعدة الأسس التالية:

ـ التأسيس لسنة الزوجية أعلى ناموس كوني حاكم دليلا على وحدانية الله سبحانه وباعثا للحياة عبر الحركة ومقتضياتها من تفاضل وتدافع وانتخاب وتداول وتنوع .

ـ التأسيس لبواعث النظر الإنساني في المصائر و المآلات والتقلبات في الماديات و المعقولات تحصيلا للاعتبار ومن ثم الرشد والايمان .

3 ـ ربط الحراك الإسلامي في كل عصر بمعلمين كبيرين بارزين متقابلين وهما:

أ- الحنفية الإبراهيمية رمزا لإخلاص التوحيد والقوة فيه والصبر على تكاليفه وبلوغ أقصى درجات الطاعة والانقياد والاسلام.

ب- الصهيونية العالمية. أما المقاصد العقدي الكبرى فيمكن أن نجمعها في **ثلاثة مقاصد عقدية ضرورية كلية عليا :**

1 . **معرفة الله سبحانه بكل أسمائه وصفاته التي ذكرها سبحانه في كتابه أو جاء بها نبيه محمد عليه الصلاة و السلام** إذ أن معرفته سبحانه على الوجه الذي أخبر به هو عن نفسه بطريق الغيب الصحيح مؤذن بحسن معرفة الإنسان لنفسه ومعرفته لمحيطه ا المشهود من حوله ومعرفته لسائر ما يحتاج إليه من علوم ووسائل لحسن إدارة حياته على أساس العدل والقسط مع ربه ومع نفسه ومع محيطه

2 ـ **معرفة الإنسان لنفسه على قاعدة أنه عبد مملوك حر مكرم مستأمن مستخلف مستعمر معلم مسخر له كل شيئ مسئول مبتلى** وذلك لخدمة **الأهداف التالية:**

. هو مخلوق للعبادة والعمارة والخلافة ضمن خطة عملية حددها القرآن الكريم ـ هو مكون من ذكر وأنثى محكومين بالمساواة التامة الكاملة المطلقة في المصدر والمنشأ والتكون والرسالة والمصير لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى أو بحسن خدمة الوظيفة الفرعية التي من أجلها وجد ضمن قانون الاشتراك والتميز بينهما .

ـ هو مكلف بتربية نفسه وتزكية روحه تأهلا للطاعة عن حرية إرادة لا إكراه فيها البتة.

ـ هو مكرم أبدا مهما كان دينه ولونه وسائر متغيراته الطوعية والكرهية عن غيره تكريما لنفخة خالقه فيه وسجود الملائكة له إلا أن يتورط في ظلم غيره .

ـ بناء موقف من الدنيا يقوم على ميزان وسط لا يركلها ولا يؤلهها بل يجعل منها وسيلة لرغد العيش وطلب رضا ولي نعمته سبحانه.

3 ـ **جعل حقل العقيدة ممتدا على الحياة بأسرها حاكمة** مهيمنة، فلا عقيدة بلا شريعة ولا شريعة بلا عقيدة وهوما تمحض له أكبر محور في القرآن الكريم محور القصة واعتبار أن القرآن الكريم هو الناطق الرسمي باسم تلك العقيدة المهيمنة على الشريعة والحياة بأسرها وهو بذلك مبارك ودون ذلك لا بركة له على الحياة .

فالمقاصد الوسائلية إذن كلها تتمحور **حول الإنسان** لإصلاح أمره بعقله هو وليس بقوة خارجة عن نطاقه ولو كانت غيبا فضلا عن شهادة.

أما لو نظرنا في المقاصد الضرورية آنفة الذكر فإنه من باب أولى وأحرى التسليم بأن محورها القطبي هو **الإنسان استصلاحا وطلبا لمنفعته** من خلاله هو عقلا ونفسا وفطرة وليس من خلال قوة أخرى فيها حبة خردل أو أقل من ذلك

مـن إكـراه . معرفـة الله سـبحانه لا مقـصد لهـا سـوى مـصلحة الإنـسان. **فالمقـصد الاسـنى للعقيـدة الإسـلامية هـو الإنـسان تحريـرا وتكريمـا.**

ثانيا: مقاصد الإحالة على الكون:

إن الإحالة من لدن المنهج القرآني العقدي على صفحة الكون ذلك الكتاب المنظور محكم البناء متناسق الإبداع احتلت مع القصة أكثر القرآن الكريم وأن النظر في الكون إنما جعل بغرض مقصدين كبيرين كل ما دونهما وسواهما مندرج بالضرورة تحتهما وهما :

1- النظر بصرا وفؤادا **بنية التسخير والاستثمار والانتفاع و الارتفاق في المجال** المادي ومنه الجمال والزينة وكل ما يعود على الإنسان بالنفع في بدنه وأبعاده الناشدة للمتعة العاجلة.

2- والنظر بصرا وفؤادا بنية **التفكر والتدبر والفهم والكشف عن مختلف السنن والنواميس الطبيعية.**

وهي رحلة عقلية خالصة غير أن تلك الرحلة تلبي سيما في مراحل التقدم غرضين:

***أولهما** تطوير الوجه الاول من النظر لاحكام التسخير الكوني والارتفاق بالخدمات الارتفاقية إلى حدود قصوى.

- **وثانيهما** تطوير الوجه الثاني من النظر لحسن فهم مكونات الخلق والعلاقة بينها ومقاديرها وسائر تفاعلاتها وهو ما يخدم الجانب الروحي في الانسان عبر النشاط العقلي الذي لا بد له من الاهتداء عبر ذلك النظر إلى ولي تلك النعمة الكونية المسداة والرحمة المادية المهداة فيعرف نفسه ويعرف ربه فيسبحه ويعبده ويحمده على آلائه .

ولذلك جاء الامر من لدن القرآن الكريم مرارا بالسعي في الارض وهو سعي مادي بالتنقل عده القرآن الكريم أول مظاهر قانون الكرامة الانسانية الفطرية " وحملناهم في البر والبحر " وسعي عقلي روحي ولقد غدا هذا اليوم

بفضل التقدم الاعلامي يسيرا جدا لمن كان له قلب يتفكر به أو ألقى السمع وهو شهيد أي واع بما يلتقطه سمعه غير غافل أو لاه.التطور العلمي إذن يسر عمليتي السعي في الارض وذلك هو المقصد الاسنى من تأطير الوحي السماوي بأسره ضمن كلمة واحدة هي "إقرأ" فإذا لم يجد أقوام من تقدم مقتضيات القراءة سوى مزيدا من الكفر والظلم الصارخ العابر للقارات بل للكواكب فإنه من المؤكد بأن القراءة عندهم لا تعني سوى محو الامية.

لا يمكن للإنسان تتبع عدد كبير ولا حتى قليل من مواطن الاحالة على الكون من لدن المنهج القرآني العقدي .هنا في هذا المجال الضيق وليس مطلقا.- للتدليل **على أن المقصد منه جني عقيدة صحيحة سليمة متوافقة مع أبجديات الابداع الكوني والتناسق الخلقي والفطرة الانسانية.**

و أذكر في هذا السياق بأن الإحالة على الكون المادي المنظور من لدن ذلك المنهج عبر السعي في الارض عقلا وتنقلا هي ما يعبر عنها اليوم عند علماء الكونيات بالمنهج التجريبي الذي يقوم على الحس والملاحظة والتجربة والمقارنة والتقييم وسائر العمليات المنخرطة ضمن المنهج التجريبي المعروف الذي إنبنت عليه سائر العلوم التجريبية المعروفة وهي وراء سائر مظاهر التقدم المادي في حياة الإنسان اليوم.[7]

و لما غرست العقيدة في النفوس منذ اليوم الأول لنزولها على أساس النظر في الكون ولم تكن عملية متأخرة رغم أن ذلك أمر صاحب نزول القرآن في كل أطواره فلم تكد تخل سورة واحدة من ذلك بما يفيد بأن النظر في الكون معول عليه أبدا في إنشاء العقيدة أو تجديد الإيمان، اخترت أمثلة من القرآن الكريم.

يقول الله عز و جل:

"وتكون الجبال كالعهن المنفوش " . "والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ".." خلق الإنسان من علق "

أول ما نزل مطلقا"والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين ". "والضحى والليل إذا سجى " . "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى " و"والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ". وغير ذلك لا يحصى .

القرآن الكريم يغرس العقيدة ليس بالتلقين والحفظ التسجيلي الميت ولكن بالاحالة على كل ما يحوي الكون وما يدركه الحس البصري والسمعي وينتفع منه الانسان في كل لحظة من وجوده حتى نائما . لم يكلفهم بالنظر فيما هو بعيد غريب بل في الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والارض لقطع سرطان الالف وداء العادة عندهم ولينشطوا العقول السادرة الغافلة.

ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين " .

"والفجر وليال عشر والشفع والوتر واليل إذا يسر."

"أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت"

"الذي خلق فسوى والذي قدر فهدي والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى "" والسماء والطارق ... فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق "... والسماء ذات البروج"...

"فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا أتسق"...

"فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس"...

"قتل الانسان ما أكفره من أي شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسر".

"فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولانعامكم"

"ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا"...

كل ذلك وغيره أضعافا مضاعفة حوته السور القرآنية نزولا وكلها تتوسل إلى غرس العقيدة وتجديد الايمان عبر أمر واحد تقريبا هو إحالة الانظار إلى

مفردات الكون دون أدنى عناء سوى بذل التفكير لساعة من نهار وجعل ذلك وردا موردودا مرة كل شهر مثلا . مفردات الكون معالم بارزة يشعر بها الاكمة الذي ولد أعمى حقيقة من مثل السماء والارض والليل والنهار والجبال والابل والنجم وخلق الانسان من نطفة والشفق والفجر والصبح والماء والشجر من تين وزيتون وعنب وحب.

لم يكن الاحالة على التاريخ أي القصة يومها سوى عبر إشارات خفيفة إلى فرعون وعاد وثمود لان الاحالة على مادة العلوم التجريبية كما تسمى اليوم أيسر على الناس وأولى بغرس الايمان عبر الحس أولى وأقصر وأقرب منافذ الانسان إلى العالم أي إلى المحيط الذي نكتسب منه العلم.

فالمقصد الاسنى من الإحالة على الكون إذن هو : كسب العقيدة عبر النظر العقلي، و المقصد الأسنى من كسب العقيدة هو ترقية التصور و السلوك أوتصحيحهما. وذلك عبر مرحلتين:

- أولهما السعي المادي في مناكب الأرض لكسب النعيم والرزق ومقومات الوجود الانساني وحفظ غريزة حب البقاء وتطويع الارتفاق الكوني إلى أقصى حدود ممكنة كما هو حال الناس اليوم؛
- وثانيهما السعي العقلي في الارض بكل الطرائق العلمية المتاحة في كل زمان من أجل حمل العقل على طرح السؤال الفطري الابدي السرمدي : من أين ولم وإلى أين ؟ رحلة عقلية روحية لابد لها أن تفضي إلى كسب عقيدة وإيمان إلا في حالة غفلة عن النظر أو جحود بعد عرفان.

المطلب الثاني: العقلية المعاصرة

والعقلية الجديد، تعني العقلية العلمية، التي تهمها الحقائق، وتتمثل في تقديم علم التوحيد على أساس التجربة والمشاهدة، لا على أساس التخمينات أو القياسات المنطقية التجريدية, لذا لم يعد الإنسان المعاصر يقبل فكرا إلا إذا كان يطابق الحقائق العلمية.

والحقائق العلمية هي سنن الله في خلقه، فهو جل جلاله - يجري إرادته في الكون بواسطة هذه القوانين التي اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط حتى الآن[8]، ولا يمكن اعتبار تلك القوانين والاكتشافات بديلا للإله كما يزعم معارضو الدين.

فكان بذلك نمط الاستدلال عنده، الذي عبر عنه بالاستدلال بالحقائق الطبيعية هو نفس نمط الاستدلال القرآني[9] الذي يتجلى في كثير من الآيات مثل قوله سبحانه: ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[10].

وذلك النمط من الاستدلال تبناه الأنبياء والرسل عليهم السلام. فمثلا يذكر لنا القرآن الكريم أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام قومه المشركين إلى التوحيد أقام الدليل على دعوته بمشاهدة الشمس والقمر والنجوم والكواكب، إذ قال الحق تعالى في ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[11]، ثم عقّب الله تعالى على حجة إبراهيم قائلا: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [12]. فكانت الحجة الإلهية هي الاستدلال من الحقائق المعلومة المشاهدة لهذا الكون، (أي المعلومة في عالم الشهادة).

وبناء على هذا يبدو لنا أن القرآن الكريم والكون كليهما إظهارٌ للمشيئة الربانية، وهو إظهار بصورة كلامية في مكان، وإظهار بصورة عملية في مكان آخر[13].

المطلب الثالث: التحديات المعاصرة

يواجه الإسلام بصفة عامة والعقيدة الإسلامية (أصول هذا الدين) على الخصوص تحديات فكرية ـ سلوكية (حضارية) أكثر حدة وشمولية من أي وقت مضى تعمل على اختراقها، أو تحريف مضمونها أو تقويضها.

ومن أهم هذه التحديات، من حيث خطورتها في ذاتها وأثرها على المسلمين وعلى البشرية جمعاء في الحاضر والمستقبل (وظيفة ومصيرا): التنصير، التلوث البيئي، والعولمة، وتفكك المجتمع، وعقيدة الخلود الإنساني في الحياة الدنيا، واهدار قيمة الإنسان بالمعالجات الهندسة الوراثية، الناتجة كلها عن تحريف مفهوم حقيقة الألوهية ونقلها من الله تعالى إلى الإنسان.

ودور الأبحاث في علم العقيدة في مجال البيئة يتمثل في التبشير بالحل الإسلامي لأزمة البيئة عبر التعريف بالأبعاد العقدية للكون وحقيقة العلاقة بين الإنسان والله والكون وما يجب أن تكون عليه, للحفاظ على البيئة وصيانتها والاستزادة منها بارتقائها ونبذ محاربتها بالإفساد في الكون, تلك الحرب والصراع الذي ولده وغرسه في الأذهان التصور المادي الإلحادي.

المطلب الرابع: أثره على الباحثين

لا شك أن للحقائق العلمية أثرها الفعال في البحث العقدي من حيث أركانه ومناهجه وميادينه، إذ إن ربط العقيدة بالحقائق العلمية المقطوع بثبوتها علميًا بواسطة الكشوف الحديثة ـ أمر له أثره القوي في ترقية البحوث و دعوة الكافرين من الناس، وذلك من خلال إثبات العقائد الإيمانية الشريعة وإقامة الحجة على ذلك بالبراهين الكونية التي لا ينكرها منصف أو صاحب عقل رشيد مما يقينا شيهاتهم و يكسبا ودهم و اليعاون من اجل انقاذ البشرية من الداما الحادق بها.

وكما أن لذلك أثر في دعوة الكافرين، كذلك له أثره في تدعيم المؤمنين فردا و مجتمعا بما يكون سببًا في زيادة إيمانهم وثباتهم على الحق واليقين وترشيد سلوكهم.

والناظر إلى مبادئ العلمانية وغيرها من المذاهب ـ التي تضمر في باطنها العداء للإسلام وتظهر للناس خلاف ذلك ـ يجد أنهم يحاولون بكل السبل عزل مبادئ الدين ونور القرآن عن ميادين الحياة العلمية والعملية، ويريدون صنع البحث الأجوف الذي لا طاقة له على البحث الجاد أو بحوار مع كافر، ولا علم عنده لتوجيه مسلم وتنمية مجتمعه.

وخلاصة القول أن البحث في العقيدة لا بد من تسلُّحه بالعُدّة الكافية وأهمها الثقافة الواسعة، والعميقة، ومن أهم جوانبها ثقافته أو علمه بمسائل العلوم الفلكية والمدنية والطبيعية والجغرافية والطبية وغيرها من علوم الكونية والإنسانية و اكتساب القدرة على استعمال الوسائل التكنولوجية المعاصرة والتحكم فيها لترقية بحثه ـ كما يقول ابن خلدون ـ لأن الثقافة الدينية والإنسانية والكونية هي عُدّة الباحث المسلم الداعية، وسلاحه الفعال في تحقيق التنمية الشاملة وسلاحه الفعال في الدعوة الإسلامية[14].

إن ضم الإعجاز العلمي إلى علم الكلام مثلا سيساهم حتما في الضبط العلمي لهذا المجال المعرفي. ونقد هذا الخطاب سيتم حتما ضمن نفس الإطار المعرفي. ومن ثم فأكاديمية المعرفة حل لمشكل المصداقية العلمية لكل من خطاب الإعجاز العلمي ونقده. وهذا الأمر لن يتأتى إلا عبر تجديد أطر المعرفة الدينية لتستوعب ما أنتج خارج أسوارها من معارف، لتكون جديرة باستعادة ممتلكاتها المعرفية، ولكي تتوقف بذلك حالة الابتذال التي تعيشها ساحة الثقافة الدينية.

المبحث الثاني: أسس المنهج

بناء على عدم ملاءمة معظم البحوث و الدراسات لروح هذا العصر (العلمية العملية) لصبغتها التجريدية, وابتعادها عن المنهج القرآني, اغترابها عن الواقع الإجتماعي و الثقافي وتصدع كثير من أسس البناء العقلي لعلم العقيدة الذي تفطن إليه علماء الكلام المتأخرون قبل المعاصرين, مما جعلها أدلة غير برهانية.

والتطور العلمي المعاصر واطراده الذي أدى إلى تغيير العقلية القديمة واختلافها عن العقلية (العلمية العملية)، التي تهتم بتقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة حيث تهمها الحقائق؛ وتغير وتجدد التحديات الواردة على الدين الإسلامي عقيدة وشريعة؛ وغيرها من الأسباب الدافعة إلى تطوير البحث في علم العقيدة – التي كانت موضوع المباحث السابقة- يجد الباحث في مجال العقيدة نفسه مضطرا لتطوير وسائله البحثية و أسلحته الدفاعية وتحصين مواقعه ومواكبة التطورات عن طريق تجديد مناهج علم العقيدة وطرقه, ذلك أن مناهج النصرة إنما هي مرتبطة بالمخاطبين من المسلمين وغير المسلمين, وعليه كانت عقلية هؤلاء المخاطبين المعاصرين عقلية علمية, مما يجعل عنصر المنطق العلمي العملي من بين أهم عناصر المنهج في علم العقيدة اليوم الذي يسعى إلى استثمار حقائق العلوم الكونية لاستخدامها في الاستدلال, وإلى إبراز الفوائد العملية للعقيدة الإسلامية وصلاحية هذا الدين لكافة الناس.

ومن أهم أسس منهج توظيف نتائر و وسائل العلوم الحديثة العناصر التالية:

أ. المعرفية والعلمية في المنهج

1- المعرفية في المنهج (أو نسبية العلم الإنساني)

القرآن الكريم بتقسيمه للآيات القرآنية إلى قسمين محكمات ومتشابهات يؤكد حقيقة نسبية العلم الإنساني, حيث قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[15].

أما المحكمات فعرفها الجرجاني بقوله: "المحكم ما أحكم المراد به عن التبديل والتغيير, أي التخصيص والتأويل والنسخ"[16], فهي تتصل بدنيانا المعلومة ونستطيع فهم مدلولاتها, مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[17]، والسعي لفهم مدلولاتها أو مفاهيمها أمر مفيد, أما المتشابهات فقد عرفها الجرجاني بقوله: «المتشابه ما خفي بنفس اللفظ ولا يرجى دركه أصلا, كالمقتطعات في أوائل السور»[18]، لأنها تختص بأمور الغيب وقد بين الله تعالى هذه الأمور بأسلوب رمزي مثل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[19].

وبين أن السعي لتعيين مدلولاتها سيعود بالضرر والخسران على المسلمين, فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[20].

وما تنافر وتصادم الفرق الكلامية إلا بسبب خوضها في هذه الآيات, وابتغائها تأويله إلى درجة الفتنة, مثلما وقع في قضية خلق القرآن, لهذا حذر القرآن الكريم والسنة النبوية من الأخذ بالمسالك المنهجية الفاسدة في العقيدة الغافلة عن مرجعية الوحي, كتعقل الذات والصفات الإلهية وأمور أخرى, إذ نهى الحق تبارك وتعالى عن اعتماد قياس الغائب عن على الشاهد في المباحث الإلهية, لأن الله ليس كمثله شيء فقال:﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[21]، كما أنه سبحانه وتعالى لا يجيب عن الأسئلة المتعلقة بالأمور الغيبية الأخرى كالروح والساعة,

وإنما يثبط همة السائل حتى لا يثير مثل تلك الأسئلة لأن أجوبتها الحقيقية الكاملة توجد خارج حدود إدراك الإنسان, فلا يستطيع أن يفهمها[22].

فمثلا يقول الحق جل جلاله عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[23]، ويقول عن الساعة (يوم القيامة): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[24], وهو ما أسميته بروح التهيب.

فهناك حقيقة بشرية أقرها القرآن الكريم هي "محدودية العلم البشري", لهذا كان ذلك التقسيم القرآني للعلم (المحكم والمتشابه) يتلاءم مع الطبيعة البشرية، كما أقر القرآن الكريم حقيقة ثانية وهي أن ما هو فوق طاقة العقل المحدود أو ما هو خارج مجال التعقل فمرجعيته المعرفية هي الوحي, وحقيقة ثالثة هي الغاية من هتين الحقيقتين وهي تحقيق البعد الواقعي للمنهج أو الضرورة العملية الدافعة إلى السلوك وفق الإنذار الإلهي, وتصديق الرسول ﷺ التي (الضرورة العملية) تكتمل بتوافق قوى الإنسان العقلية والوجدانية والحسية[25].

بينما البناء المعرفي المتكامل يهدف إلى تحقيق شمولية المعرفة التي تتحقق بها شمولية النظرية الكونية في الآفاق والأنفس وشمولية المعرفة الوجودية (الله – الإنسان – الكون) في الجمع بين القراءتين القرآن والكون, مما يجعل الاستدلال على حقائق العقيدة والدين الإسلامي بصفة عامة, يعتمد على أدلة برهانية عقلية نقلية في آن واحد.

ذلك أن التعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة عامة, جعل الكون بأسره دليلا علميا لتأييده وتأكيده.

فالاعتراف بمحدودية العلم البشري القائم على المنهج التجريبي الاستنباطي. يدل على مدى تطابق هذه الحقيقة مع الحقيقة العلمية القرآنية

(المحكم والمتشابه) ومن ثم كان أسلوب الاستدلال القرآني هو الاستدلال العلمي عينه, أي اعتماد هذه الحقيقة المعرفية المنهجية يعني بناء منهج كلامي علمي صحيح, يقوم على العقل العملي والضرورة العملية.

2- العلمية في المنهج

أما العلمية في المنهج فهي الاستدلال على الحقائق العقدية بالطريقة الطبيعية, لكون القرآن الكريم والكون كليهما إظهار للمشيئة الربانية, وهو إظهار بصورة كلامية في مكان وإظهار بصورة عملية في مكان آخر, مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[26].

ويتم تحقيق ذلك باستثمار حقائق العلم التجريبي لاستخدامها في الاستدلال, لأن التقدم العلمي المعاصر أعطى تأييدات جديدة لأصول وفروع الإسلام، حيث يمكن الاستفادة منها في بحث البراهين العقدية, كبرهان النظم والاختراع وبرهان العناية والغاية على وجود الله تعالى وصفاته, وبراهين اليوم الآخر والنبوة, والبراهين التشريعية في الاستدلال على صلاحية المسائل العملية في كل مجالات الحياة.

ولذا أكد العلماء المسلمون المعاصرون على الدور التأييدي لمثل هذه الإنجازات العلمية لمسائل الدين الإسلامي عامة والعقيدة خاصة, وتنقسم هذه المؤيدات العلمية إلى قسمين, الأول: الشواهد العلمية على معرفة الله تعالى والقضايا العقدية, والشواهد العلمية الدالة على الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

فيما يتعلق بالقسم الأول يقول الأستاذ مرتضى مطهري حول دور العلم التأييدي في برهان النظم في إثبات وجود الله تعالى ومعرفته: «هنا يكون العلم لنا عونا, فإنا عندما نقول: بأن العلم – علم التجربة والاختبار – كلما يتطور يساعدنا أكثر, كان المقصود من ذلك هذه المواطن, فإن العلم كلما أخضع تلك الموجودات للتجربة والاختبار كلما توصل إلى معرفة النظام الداخلي فيها أكثر, (فمثلا تمكن علم التشريح القديم من الوصول إلى معرفة بعض أنسجة العين, لكنه لم يصل إلى ما وصلت إليه المعرفة الدقيقة للعلم الحديث في هذا المجال)، فالعلم كلما تقدم كلما توصل لكشف

أسرار نظام الطبيعة أكثر, ذلك النظام الحاكي على الاختيار للأفضل, وعن حسن التدبير والإدارة في الخلق والإيجاد»[27].

ومن الأمثلة على ذلك استعمال «نظرية الانفجار الكبير وتمدد الكون» في الاستدلال على وجود الله تعالى، إذ تدل هذه النظرية على أن الكون له بداية وغاية, وما له بداية ليس أزليا وله نهاية ومن ثم كان مفتقرا إلى موجد أوجده من العدم, وما له غاية لا بد له من حكيم أوجده وهداه لغاية مصالح للإنسان, وهو ما أسماه الأستاذ مطهري «برهان الهداية» وابن رشد من قبله «دليل العناية» وعبر عنه أحد علماء الفلك المعاصرين وهو الأستاذ تران تيون (Trinh Thuan) في حديثه عن نظرية تمدد الكون بقوله: «إن كثير من الفلكيين يؤمنون بأن الكون خلق من أجل الإنسان, أي أنه كان مبرمجا»[28].

ومن الشواهد العلمية الدالة على الإعجاز العلمي للقرآن والسنة, ما أثبته العلم من سبق واكتشاف قرآني في علم الأجنة والجبال والبحار والأمطار والرياح والطب الوقائي وعلم التشريح ووظائف الأعضاء وغيرها من الحقائق العلمية في مختلف العلوم مما يثبت ربانية القرآن الكريم وصدق نبوة محمد ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. يتم التأسيس للإيمان اليقيني لبقية أركان الإيمان وخاصة الإيمان بالبعث والجزاء. ومقتضياته السلوكية المتجسدة في صفات المؤمن. كما بينته بداية سورة (المؤمنون) إذ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[29].

ولا يتسنى تجسيد هذا المبدأ (العلمية) إلا بتحقيق عملين أساسيين, هما:

1- **تدوين «آيات الآفاق»**: إن القرآن الكريم «يستخدم الآيات الكونية لتدعيم دعوته, إلا أن هذه الإشارات إجمالية, والحكمة في إجمالها هي أن الإنسان القديم لم يكن ليفهمها لو فصلت له, ولكان قد دخل في متاهات تبعده عن الهدف الحقيقي للوحي, ألا وهو هداية البشر وإنذاره من يوم الحساب القادم (واليوم قد تجمعت لدينا مواد مفصلة عن كثير من تلك الإشارات القرآنية بفضل تطور العلوم الطبيعية) وليس من المبالغة أن أقول إن العلوم الطبيعية الحديثة قد أصبحت علم الكلام الإسلامي, ولم يبق علينا إلا تدوينها, والحاجة تقتضي تدوين آيات الله الكامنة في خلقه وكونه, باستخدام الاكتشافات العلمية الحديثة»[30].

2- **تدوين: «آيات الأنفس»**: مصداقا لقوله تعالى:﴿**و في أنفسهم**﴾ وقوله: ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ وتشمل آيات الله المتعلقة بالذات الإنسانية (المادية) (بداية الوجود أو (الأصل) والتخلق الجنيني, ووظائف الأعضاء, ووظيفة الإنسان الوجودية ... إلخ) كما تشمل من جهة أخرى آيات الله الكامنة في النفس البشرية (الجانب النفسي لمعنوي), وهذا الجانب كان مجهولا إلى حد كبير في القديم وما كتبه الصوفية في هذا المجال من بحوث قيمة كثير منها اعتمدوا فيها على القياس أكثر مما اعتمدوا على الحقائق العلمية والجزء الآخر من كتاباتهم فقد بعضه مغزاه ووظيفته في عصرنا هذا.

وعليه يتبين لنا أن هذا المبدأ (العلمية) هو الذي يعيد للنقل مكانته الجقيقية وللعقل دوره ووظيفته المثمرة في منهج علم العقيدة, فتتكامل في توافق العلاقة بين العقل والوحي والوجدان عن طريق العلم التجريبي, وتتوحد المعرفية والعملية في منهج علم العقيدة المعاصر بعدما انفصلتا وتضادتا في علم الكلام القديم في صوره الأخيرة.

ب ـ المرجعية النصية (القرآن والسنة) والتراثية

والمقصود بهذا الأساس، أن الارتكاز على حقائق الدين الإسلامي مبني على المنهج القرآني في النظر والبحث والاستدلال والخطاب حيث توصل

العقيدة الإسلامية إلى النفوس والعقول بأقصر الطرق وأسهلها، لأنه المرجع الأول والأصل لكل المعارف البشرية في الدين والحياة، ومصدر يقين الأمة ويقينية هذه المعارف ومطلق نتائجها.

وهذا ما يجعلنا لا نضفي الصبغة القدسية على تراثنا الكلامي باعتباره اجتهادات بشرية تخطئ وتصيب وتبلى مع مرور الزمن وتتغير بتغير التحديات فتحتاج إلى تجديد وإحياء وعناية.

ولا يعني هذا إلغاء التراث الكلامي القديم من مجال البحث والدرس المتخصص، لأننا لا يمكن أن نجحد ونلغي الجهود العظيمة التي بذلها أسلافنا في بناء علم العقيدة للدفاع عن الدين الإسلامي والدعوة إليه، وعليه يكون التعامل معه «بالإضافة إليه وإثراؤه في المادة وفي الأسلوب بما يستطيع أن يجابه المستجدات من مطالب الفهم والإقناع, ومن عوادي المطاعن الطارئة, وذلك مع الحفاظ على المنجزات الماضية فيه كمخزون تراثي ثري, تقع العودة إليه عند الحاجة, إما على سبيل الاستفادة في التوظيف لمجابهة ما يطرأ من الأحداث التي قد يعود منها ما حدث قديما, أو يعود ما هو مشابه له, وإما على سبيل الدرس للتثقيف بالتاريخ الزاّهر للفكر الإسلامي»[31].

ج- الواقعية في المنهج

والمراد بهذا المبدأ تثمين واستخدام ما أمكن من المعطيات العلمية والوقائع التي تحيط بحياة الإنسان والمستمدة منها, وقولبتها في إطار منهجي, وتوظيفها من أجل إثبات حقائق العقيدة والدفاع عن الدين الإسلامي, وإبراز الفوائد العملية للعقيدة الإسلامية التي من شأنها أن تحل المشاكل الحياتية لأفراد ومجتمعات اليوم التي تعاني منها الإنسانية المعاصرة, فيكون المنهج أكثر جدوى في الإقناع والتصديق نظرا لتقبل الناس اليوم لمثل هذه المنهجيات الإثباتية, لأن عقليتهم هي العقلية العلمية العملية, ويخرج بذلك منهج علم العقيدة من دائرته التجريدية ليدخل من جديد – كما نشأ أول مرة – في صميم

الحياة اليومية, فيسعى إلى تجسيد الضرورة العملية في حياة المسلمين موظفا الإنذار الإلهي بالعذاب الأخروي وتصديق الرسول ﷺ فيتجلى البعد الواقعي في المنهج في كل عمل وسلوك يقوم به عالم الكلام أو الداعية, لذا كان أول ما نزل من القرآن الدعوة إلى التأسيس المعرفي بالمنهج الإلهي للإيمان والسلوك فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[32], وكان أول ما نزل بعد فتور الوحي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[33]، فكان نقطة البداية في الدعوة إلى الإسلام, والالتزام به تصورا وسلوكا في المجتمع[34].

وخير نموذج في ذلك المنهج القرآني الذي جمع في سياقه آياته الإقناعية والاستدلالية بين الواقعين الكوني والإنساني والكشف عن العلاقات العقدية القائمة بينهما والعلاقات المترتبة عنها الاجتماعية والسلوكية والنفسية, والسياسية والاقتصادية، كما بينها في قصص الأنبياء والأمم السابقة, وضرب الأمثال, وإبراز الحكمة من كل حكم تشريعي.

فلا يعود التوحيد مجرد اعتقاد نظري فحسب مؤداه واجب الوجود واحد لا أكثر, أو هو التعدد في مظاهره (الربوبية والإلهية والصفات), بل لابد للتوحيد أن يتجلى في السلوكات الفردية والسلوكيات الاجتماعية العامة ويستشعر خلالها الإنسان, فردا ومجتمعا, معية الله تعالى الباري ومراقبته الدائمة, ويدرك ويعرف علم اليقين وعين اليقين ربا خالقا وإلها معبودا يتصف بكل صفات الكمال المتجلية في مخلوقاته آفاقا وأنفسا[35].

و هذا الأمر يقتضي ثلاثة أعمال بنائية منهجية:

- تدوين علم الآثار القرآني, فالقرآن يشير إلى الأنبياء والحضارات القديمة, وهذا الجزء من القرآن يسمى (بأيام الله) فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[36]، فهذه الأحداث والوقائع التاريخية جد هامة, إذ تكشف لنا السنن الاجتماعية والإنسانية في قيام الحضارات وتداولها على التمكين, وتثبت أن للكون إلها أرسل رسله في

كل العصور وهو الذي يحدد مصير الشعوب وأقدار الحضارات بناء على قوانينه وسننه الثابتة.

والعلم الحديث في تطوره واكتشافاته أمدنا بمادة علمية غزيرة تمكننا اليوم من شرح وفهم الإشارات القرآنية حول أيام الله وتوثيقها تاريخيا وبالتالي تدوين الدعوة القرآنية بلغة التاريخ[37], واستخراج القوانين والسنن والحقائق وتوثيقها علميا وبالتالي تدوين الحقائق العقدية حول بداية الخلق (الانسان والكون) وسنن الحضارات, وفهم المستجدات فتدون قواعد الدعوة القرآنية بلغة العلوم الكونية والاجتماعية.

-كما يقتضي الأمر التوجه إلى المسائل التشريعية ذات الصلة العملية بعدما حدث من انقسام بين الشريعة والعقيدة لهداية سلوك المسلم أو توجيهه أو إصلاحه أو الرد على مطاعن الخصوم التي تهدف إلى التشكيك فيها أو إبطالها. وهذا يعني إنكار أصل من أصول الدين والتشكيك في أحقية هذا الدين وصلاحيته للبشرية.

- وعليه كان لا بد من استخدام مصطلحات ومفاهيم ذات الدلالة العلمية والعملية الواقعية حتى تكون متحققة في الواقع وقابلة للإدراك المباشر والمعاينة, سهلة الفهم والاستيعاب من كل المخاطبين, حتى نتجاوز المصطلحات والمفاهيم الكلامية المفرطة في التجريد والمستعصية على الفهم والاستيعاب من قبل أهل الاختصاص، قبل العامة.

الهوامش:

[1]- هذا المفهوم نستعيره من كتاب العالمية الإسلامية الثانية للمرحوم محمد أبو القاسم حاج حمد مع بعض التصرف، باعتبار العالمية الإسلامية الأولى المرحلة الأولى من الحضارة العربية الإسلامية التي بدأت مع البعثة المحمدية وانتهت بسقوط الخلافة العثمانية بينما تمثل العالمية الإسلامية الثانية مشروع الإسلام المستقبلي للبشرية.

2 . عبد الوهاب المسيري: إشكالية التحيز (محور العلوم الطبيعية)،ص38.

3 . الفارابي: إحصاء العلوم,ص.134.

4 . عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص 16-17.

5 . وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي، ص99 وما بعدها.

6- انظر بحثنا "منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر" رسالة دكتوراه في العقيدة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية 2004 .

7- انظر اكتشاف المسلمين للمنهج التجريبي في بحثنا : القياس بين المنطق و علم أصول الفقه، رسالة ماجستير.

8 – وحيد الدين خان: الدين في مواجهة العلم، ص 54.

9 – وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي، ص104.

10 – سورة الغاشية:17-20.

11 – انظر سورة الأنعام: 74-78.

12 – سورة الأنعام: 83.

13 . وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي، ص 104.

14- انظر: الإشارات العلمية في القرآن الكريم ص240.

15 . آل عمران:07.

16 . الجرجاني:: التعريفات, ص363.

17 . سورة المائدة:38.

18 . الجرجاني : التعريفات, ص253.

19 . سورة الأعراف:54.

20 . سورة آل عمران:07.

21 . سورة النحل:74.

22 . وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي, ص 106.

23 . سورة الإسراء:85.

24 . الأعراف:187.

25 . انظر، الواقعية في المنهج.

26 . فصلت:53.

27 مرتضى مطهري: التوحيد, ص71 -70.

28 . Michel Leclerq: "Dieu revient très fort" un débat métaphisique avec l'astronome Trinh.Thuan, P.8.

29 . المؤمنون: 1-11.

30 . وحيد الدين خان: تجديد علوم الدين, ص70.

31 . عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة, ص 2829-.

32 . سورة العلق:12-.

33 . سورة المدثر:1-2.

34 . راجع هشام فرغل: الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية, ص302306-.

35 . انظر الفصل الأول من البحث.

36 . سورة ابراهيم:05.

37 . وحيد الدين خان: تجديد علوم الدين, ص 6970-.

وكما أن لذلك أثر في دعوة الكافرين، كذلك له أثره في تدعيم المؤمنين فردا و مجتمعا بما يكون سببًا في زيادة إيمانهم وثباتهم على الحق واليقين وترشيد سلوكهم.

والناظر إلى مبادئ العلمانية وغيرها من المذاهب ـ التي تضمر في باطنها العداء للإسلام وتظهر للناس خلاف ذلك ـ يجد أنهم يحاولون بكل السبل عزل مبادئ الدين ونور القرآن عن ميادين الحياة العلمية والعملية، ويريدون صنع البحث الأجوف الذي لا طاقة له على البحث الجاد أو بحوار مع كافر، ولا علم عنده لتوجيه مسلم وتنمية مجتمعه.

وخلاصة القول أن البحث في العقيدة لا بد من تسلُّحه بالعُدّة الكافية وأهمها الثقافة الواسعة، والعميقة، ومن أهم جوانبها ثقافته أو علمه بمسائل العلوم الفلكية والمدنية والطبيعية والجغرافية والطبية وغيرها من علوم الكونية والإنسانية و اكتساب القدرة على استعمال الوسائل التكنولوجية المعاصرة والتحكم فيها لترقية بحثه ـ كما يقول ابن خلدون ـ لأن الثقافة الدينية والإنسانية والكونية هي عُدّة الباحث المسلم الداعية، وسلاحه الفعال في تحقيق التنمية الشاملة وسلاحه الفعال في الدعوة الإسلامية[14].

إن ضم الإعجاز العلمي إلى علم الكلام مثلا سيساهم حتما في الضبط العلمي لهذا المجال المعرفي. ونقد هذا الخطاب سيتم حتما ضمن نفس الإطار المعرفي. ومن ثم فأكاديمية المعرفة حل لمشكل المصداقية العلمية لكل من خطاب الإعجاز العلمي ونقده. وهذا الأمر لن يتأتى إلا عبر تجديد أطر المعرفة الدينية لتستوعب ما أنتج خارج أسوارها من معارف، لتكون جديرة باستعادة ممتلكاتها المعرفية، ولكي تتوقف بذلك حالة الابتذال التي تعيشها ساحة الثقافة الدينية.

المبحث الثاني: أسس المنهج

بناء على عدم ملاءمة معظم البحوث و الدراسات لروح هذا العصر (العلمية العملية) لصبغتها التجريدية, وابتعادها عن المنهج القرآني, اغترابها عن الواقع الإجتماعي و الثقافي وتصدع كثير من أسس البناء العقلي لعلم العقيدة الذي تفطن إليه علماء الكلام المتأخرون قبل المعاصرين, مما جعلها أدلة غير برهانية.

والتطور العلمي المعاصر واطراده الذي أدى إلى تغيير العقلية القديمة واختلافها عن العقلية (العلمية العملية)، التي تهتم بتقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة حيث تهمها الحقائق؛ وتغير وتجدد التحديات الواردة على الدين الإسلامي عقيدة وشريعة؛ وغيرها من الأسباب الدافعة إلى تطوير البحث في علم العقيدة – التي كانت موضوع المباحث السابقة- يجد الباحث في مجال العقيدة نفسه مضطرا لتطوير وسائله البحثية و أسلحته الدفاعية وتحصين مواقعه ومواكبة التطورات عن طريق تجديد مناهج علم العقيدة وطرقه, ذلك أن مناهج النصرة إنما هي مرتبطة بالمخاطبين من المسلمين وغير المسلمين, وعليه كانت عقلية هؤلاء المخاطبين المعاصرين عقلية علمية, مما يجعل عنصر المنطق العلمي العملي من بين أهم عناصر المنهج في علم العقيدة اليوم الذي يسعى إلى استثمار حقائق العلوم الكونية لاستخدامها في الاستدلال, وإلى إبراز الفوائد العملية للعقيدة الإسلامية وصلاحية هذا الدين لكافة الناس.

ومن أهم أسس منهج توظيف نتائر و وسائل العلوم الحديثة العناصر التالية: